

العلوم الإسلامية من التأصيل إلى التوصل

د/ عبد الحفيظ بورديم

جامعة تلمسان

bourdim@maktoob.com

الملخص:

تفترض هذه المداخلة في بنيتها المعرفية، أن العلوم الإسلامية تنشئ خصوص التعقل وتطمح إلى عموم التحضر، بمعنى أنها تشكل العقل المسلم الذي يصنع الحضارة في جوهرها التوحيدي. ولذلك تسعى في مقاربتها لتفكيك الإشكالية إلى بسط محورين اثنين هما:

- محور التأصيل - وهو مطلب ذاتي- وينبني على تأصيل التعقل وتأصيل التخلق
- محور التوصل - وهو مطلب حوارى - وينبني على تحقيق التكوثر وتحقيق الشهود

ثم تصل المداخلة إلى إثبات المقصد من العلوم الإسلامية وهو ترسيخ الهوية الوطنية.

أولاً: مقدمة:

1- تحرير الإشكالية:

تنبني إشكالية هذه المداخلة على الربط بين الحاجة الحضارية وبين تأصيل العلوم الإسلامية، لذلك يمكن صياغة الإشكالية لسانيا بقولنا: كيف يمكن لهذه العلوم أن تشكل مرتكزا لبناء الحضارة؟ وإذا علمنا بأن الحضارة هي التجسيد المادي للنسق الثقافي الذي ينشئها، فإن الإشكالية تتوسع إلى التساؤل عن وظيفة العلوم في تشكيل الإنسان المرتبط بقيم الانتماء الثقافي الوطني.

2- بسط الفرضية

ويتحرك المنهج التحليلي من افتراض أن التجربة التعليمية تحتاج إلى كثير من الشجاعة لإعادة التفكير في تجديد الأطروحات الكبرى فيها وتأسيسا وممارسة. تتأسس الفرضية، إذن من أن بسط أطروحة العلوم الإسلامية أصبحت ضرورة وحاجة¹ لتحقيق بعدها الوظيفي المتمثل في إرساء الهوية الوطنية، وهو مطلب استراتيجي يحفظ للأمة كينونتها الثقافية وصيرورتها الحضارية.

3- إقامة الدعاوى

وقبل الممارسة التحليلية البرهانية نعتقد بوجوب تقديم مجموعة الدعاوى التي تأسس عليها مسار التفكير المنهجي لهذه الورقة. ونريد لهذه الدعاوى أن ترتفع إلى مستوى المسلمات.

3-1 دعوى خصوص التعقل، بمعنى أن تشكيل العقل هو مطلب رئيس من المسألة التعليمية، فإذا علمنا أن انبناء الإسلام في نسقه المقاصدي على اعتبار التعقل شرطاً إسلامياً لتحقيق المثالية الإنسانية² فهي دعوى أن العلوم الإسلامية تشكيل لخاصية التعقل. ويقتضي هذا أن منهجها ليس تلقيناً وتنشيطاً للذاكرة فحسب، بقدر ما هو تحفيز استدلالى وتنوير للذكاء. وخير مثال على ذلك أن إبراهيم عليه السلام في محاوراته مع خصومه إنما اعتمد الاستدلال المنهجي. فبهتوا.

3-2 دعوى عموم التحضر، بمعنى أن رسالة التعقل هي بناء الحضارة وفق مقوماتها الأربعة³: (العلمي+ العملي+ الأخلاقي+ الجمالي) فالعلاقة بين التعقل والتحضر سببية. بحيث إن التحضر لا يتحقق بغير تعقل، والتعقل لا تكون نتيجته إلا تحضر. وفي هذا بيان أن ظاهرة الاستيراد لم تستطع أن تنتج تحضراً، بل أنشأت نقيضه وهو مزيد التخلف. ومن هنا نتبين معنى أن يكون المسلم شاهداً على غيره بعلمه وعمله وأخلاقه وإحسانه، وخير مثال على ذلك أن رسائل الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض أن يسلموا لينالوا الأجر مرتين.

ثانياً: تحديد المفاهيم

1- مفهوم العلوم الإسلامية

* العلوم: جمع مفرد العلم وهو مصدر من مادة (ع ل م) وفي صحاح الجوهري "علمه أي عرفه وعلمه تعليماً أي عرفه"⁴ فالتعليم في دلالاته المعجمية هو نقل المعرفة من شخص إلى شخص آخر. ويضيف الراغب الأصبهاني أن التعليم "اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم"⁵ ويتابع الراغب أن العلم أنواع منه: نظري وعملي وعقلي وسمعي. والتعليم هو تأهيل معلم لمتعلم لتحصل في نفسه صور الأشياء التي يراد تعلمها على حقيقتها وفي ذاتها. إنه مجموعة القواعد التي تبقي التواصل وثيقاً بين الأطراف الثلاثة: المعلم + المتعلم + العلم.

* الإسلامية: هي تحقيق النسبة إلى الإسلام وهو من مادة (سلم) المسبوقة بهمزة فيتخذ معنى التسليم بمجموعة المسلمات التي يجب أن تشكل العقل الإنساني، وهي مسلمات تشكل من:

- مقتضى التوحيد، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ البقرة: ٢٥٥
- مقتضى الخلق، ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر: ٤٩
- ومقتضى التعبد، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات: ٥٦
- ومقتضى الكمال، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ المائدة: ٣
- ومقتضى الشهود، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ البقرة: ١٤٣
- ومقتضى الجزاء، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ التوبة: ٨٢

معنى هذا العلوم الإسلامية هي تأهيل المتعلمين لتحصل في أنفسهم هذه القواعد المعرفية فيتحقق لهم التعقل والتحضر. وهما مقدمتان لصناعة الحضارة في جوهرها التوحيدي.

2- مفهوم الهوية الوطنية

* الهوية: من الكلمات المولدة التي نحتت من الضمير هو، والمقصود بها مجموعة القيم التي تشكل نسقا ثقافيا متفردا ومتميزا، تحقق مبدأ التعرف. بمعنى أن الهوية هي كل ما يضمن الانتماء إلى دائرة ما. ولأن مجموع دوائر الانتماء متعددة فإن الهويات أيضا متعددة، فتكون إما قومية أو دينية أو سياسية أو جغرافية أو غيرها. وهي تتخذ صفاتها من مجموعة القيم المشكلة لها. ومن هنا فإن المناهج التعليمية تكون دائما مستمدة من تلك القيم وخادمة لها.

* الوطنية: نسبة إلى الوطن، وهو يتخذ في لسان العرب دلالة المنزل ودلالة الاستقرار، ولكن مدلوله توسع في المفاهيم الجديدة ليعني التحديد القيمي لإطار جغرافي بعينه. بمعنى أن الوطن الجزائري هو: خريطة جغرافية مستقلة عن غيرها بحدود مرسومة وهو قيم دينية ولسانية وجنسية. ولذلك فإن ياء النسبة التي تلحق الوطن تعني العقد الالزامي والالتزامي للمحافظة عليها والعيش في إطارها.

ومعنى هذا أن الهوية الوطنية هي مجموعة القيم الإسلامية والعربية والترابية التي يجب على الأفراد الانتساب إليها والمحافظة عليها. وهو معنى قول الشيخ عبد الحميد بن باديس: شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب.

3- مفهوم التحديات المعاصرة

* يطلق على التحديات مجموعة الإكراهات التي تمنع مسار التحضر، وهي تتوزع بين أن تكون داخلية أو خارجية، موضوعية أو ذاتية. ويغلب أن تكون - في زماننا الحاضر - مرتبطة بإكراهات العولمة. والعولمة هي طغيان القوة الليبرالية في بعديها الثقافي والسياسي، بحيث انبتت على مقولتي نهاية التاريخ وصدام الحضارات⁶.

ومعنى هذا أن التحديات المعاصرة نشأت من عقدة ماراتون⁷ - كما يسميها روجيه غارودي- وهي تحمل قيما تدميرية للخصوصيات وتحرم الإنسانية من الثراء النوعي، لأنها تعتبر أن المركزية الأمريكية يتوقف عندها التاريخ الإنساني. ومن ثم صارت تفرض منظومتها القيمية على غيرها.

والحق أن التحديات بدأت قبل العولمة، أي مع الظاهرة الاستعمارية - عفوا الإستكبارية- وقد عبر عنها الإمام محمد البشير الإبراهيمي أحسن تعبير حين قال: "ويح المسلمين يولد مولودهم، فيما أن يهمل ولا يعلم - وهذا هو الأكثر- فيستقبل الحياة بلا دين ولا دنيا، وإما أن يعلم هذا التعليم الشائع فيجمد وتحمد فيه جذوة الإسلام، وإما أن يسلك به المسلك الثالث وهو التعليم الأوروبي أو المطبوع بالطابع الأوروبي فيلحد ويحتقر آباءه وأمتة ودينه ولغته ووطنه، فمن للمسلمين؟"⁸

يستوجب هذا أن نعيد مراجعة المقصدية من التعليم، وإذا كانت العلوم الإسلامية مطلبا تعليميا، فيجب أن تحقق الغاية منها أي استعادة الوعي بأن إنجاز الحضارة لا يتحقق إلا بتثبيت الهوية. وسنحاول أن نعالج تلك المقصدية في محور التأصيل ومحور التوصليل.

ثالثاً، محور التأصيل

التأصيل مطلب ذاتي تمارسه كل الثقافات لتضمن استمرارها النوعي، ولتستطيع أن تتأقلم مع المتغيرات الحاصلة من حولها. لذلك فإن كلمة التأصيل تعني رد كل المتغيرات إلى ما يوافق الثابت المعرفي. وكل منظومة ثقافية إذا تستطيع أن توازن بين ثوابتها والمتغيرات الحاصلة، فهي تضمن بقاءها واستمرارها. بينما تضمحل تلك التي لا تملك تلك الاستطاعة. هذه القاعدة نبني عليها أن مقصدية العلوم الإسلامية هي تحقيق هذا المطلب الذاتي. وغير خفي أن المجتمع الجزائري حين ابتلي بالاستكبار الفرنسي في القرن التاسع عشر إنما تحصن بالتأصيل ليحافظ على كيانه. وليس غريباً أن يكون التعليم هو مجال الصدام الكبير بين الإدارة الاستعمارية والحركة الإصلاحية. لعلمهما أن التعليم هو تشكيل الإنسان.

1- تأصيل التعقل

الهدف الذي تبغيه المسألة التعليمية هو إيجاد القدرة الاستدلالية عند المتعلم. وهي التي تؤهل صاحبها للاقتناع والإقناع، من غير تعصب أو جمود. إنها القدرة على الوصول إلى المجهول انطلاقاً من المعلوم. إن التعقل يقتضي استعادة ما كان يفهمه ابن خلدون من أن: "حسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية تزيد الإنسان ذكاء في عقله وإضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس إذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالادراكات وما يرجع إليها من الملكات فيزدادون بذلك كيساً لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية".⁹ ويبدو أن خاصية التعقل هي من صميم العلوم الإسلامية حين تفهم حق الفهم. ونزداد تأكيداً عليها حين نعلم أن جذر -ع ق ل- ورد في القرآن الكريم في 49 موضعاً، واختلفت سياقاتها بين كونها دالة على الكتاب، والكون، والأخلاق¹⁰.

ونفهم من هذا أن العلوم الإسلامية تتوسع دائرتها إلى علوم الوحي، وعلوم الكون وعلوم الإنسان، وفي هذا تخلص للعلوم الإسلامية من الفهم البسيط الذي يجعلها مادة متعلقة بالوحي فقط فيكون منها: العقيدة وعلم الكلام، أو علوم الكتاب والسنة، أو علوم السيرة، أو الفقه ومذاهبه.

وبمثل هذا الفهم أيضاً يمكننا أن نطمئن إلى أن المقصدية من العلوم الإسلامية هي أن تتسع لتشمل كل معرفة تحقق الانتماء إلى منظومة التوحيد¹¹، وهو المعنى الذي يمكن أن نستنبطه من قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ فصلت: ٥٣

2- تأصيل التخلق

إن المقصد الثاني من التأصيل هو التخلق، ونقصد به تحويل المدركات المحمولة إلى سلوك يومي، أي تحويل المعارف المكتسبة إلى أخلاق. وعبرنا عنه بصيغة التفاعل حتى نبرز البعد الإرادي الواعي.

والتخلق قيمة إسلامية بالغة، ولا يمكن تصور التعليم الإسلامي منفصلاً عنه. وقد جرى العرف أن من يحصل علوم الوحي يجب أن يتمثلها في حياته. فكأنه هو المكلف بتحويل القيم الإسلامية إلى سلوكيات.

ويحملنا هذا على القول إن التعقل فردي، ولكن التخلق جماعي. وهو ما يجعل العلوم الإسلامية لا تطلب لذاتها أو لمنفعة فردية محدودة، بل هي تكليف الجماعة لبعض أفرادها أن يحفظوا مقوماتها الوجودية وقيمها الدينية، وهو ما تعبر عنه الآية الكريمة: ﴿ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَنْفِقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٢) إذا استقر هذا المبدأ وجب أن نفهم أن العلوم الإسلامية تنشئ الإنسان الذي يعلم أن: "المقصد العام من التشريع هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصالح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان"¹². وحفظ الأمة مراتب عديدة تبدأ من حفظ أخلاقها وإصلاح أرضها واستنباط خيراتها وتدير منافعها وتحصين ثغورها، أي حفظ بقائها.

ومتى فقه القائمون على التعليم الإسلامي هذا فهم مؤهلون أن يجعلوا التخلق بحفظ الأمة واجبا شرعيا، وهو الذي قصده ابن باديس حين قال: فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب.

رابعاً، محور التوصل

والتوصل مطلب حوار يبنّي على الشعور بواجب تبليغ الحكمة إلى الآخرين، وهو مطلب متغير بين الثقافات، إذ منها ما تسعى إلى التواصل ومنها ما تغلق على نفسها. ويغلب على الإسلام أنه لا يتغلق على أبنائه بل يحملهم على التواصل مع غيرهم من منطلق الدعوة بالحكمة. ويجعل القرآن الكريم التبليغ أمراً إلهياً واجبا، يقول الله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة: ٦٧) ومنطوق الآية خطاب للرسول ﷺ

ولكن مفهومها خطاب للإنسان المسلم أن يبلغ، ولا يتحقق التبليغ إلا من تركى وأوقى الحكمة.

ومقصد التوصل كما يجب أن تنشئه العلوم الإسلامية يتمثل في تكوين الإنسان الذي يحسن المحاوره مع الآخرين من موقع الخيرية والإنسانية.

1- تحقيق التكوثر

التكوثر هو القدرة العليمة على الاستجابة لأسباب التحولات الخارجية بحيث يمكن توجيهها والتحكم فيها من منطلق القوة والأمانة¹³ - وهو شأن موسى عليه السلام - ومن منطلق الحفظ والعلم¹⁴ - وهو شأن يوسف عليه السلام - وقد اجتمعت الفضائل الأربعة في محمد ﷺ، لذلك خصّه الله بسورة الكوثر ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ الكوثر: ١ - ٣ ويمكن أن نفهم بأنها خاصية العالمية الإسلامية لأنها تنشئ العقل الذي يعتز بقيم الانتماء - وهي الصلاة - ولا يتضعض أمام شبهات الشائتين.

إن خاصية التكوثر هي مطلب تنشئه العلوم الإسلامية لأنها تشكل الإنسان القادر على أن يحيا ثقافته معتزاً بها ولو كان الناس جميعاً على غير ما يراه وينشده. ومعنى هذا أن اعتماد التكوثر في التعليم الإسلامي يؤهل المتعلمين إلى امتلاك الاعتزاز بالانتماء والافتقار على مواجهة التحديات.

والتاريخ يمدنا بالشواهد الكثيرة ومنها مثلا، أن الأمير عبد القادر وقد تلقى التعليم الإسلامي الحقيقي استطاع أن ينتزع من خصومه الاعتراف بالدولة كما استطاع أن يلجم خصومه بالمقراض الحاد.

ويبدو أن العلوم الإسلامية في منهجها الذي تبنته سشكل الإنسان الذي يجعل الهوية الوطنية مطلبا شرعيا، بما سيمتلكه من قوة وأمانة وحفظ وعلم.

ومن هنا نطمئن إلى أن خاصية التكوثر هي مقصد العلوم الإسلامية الكفيل بترسيخ قيم الهوية الوطنية. خصوصا إذا فهمنا تفسير الشيخ محمد لكحل شرفاء لسورة البلد ﴿لَا أُقِيمُ بِهِذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ۝﴾ البلد: ١ - ٣ حين قال إنها تبني الوطنية التي تربط بين التراب والاستقرار به والتوالد فيه.¹⁵

2- تحقيق الشهود

إن خاصية التكوثر متى يتم امتلاكها، تنقل صاحبها إلى خاصية أخرى ذات أهمية عظمى، وهي خاصية الشهود. وإذا كانت الأولى هي تحقق الفضائل الأربعة لاعتزاز بالانتهاء والاقترار على مواجهة التحديات، فإن الثانية هي تحقق بالتبليغ والظهور على الثقافات الأخرى.

ويبدو أن الشهود هو الغاية القصوى من التعليم الإسلامي لأنها تؤهل المتعلمين إلى بلوغ ذروة العطاء الإبداعي والاستكشافي، بحيث يمتلك الطاقة الانجازية والتنفيذية، وبها يجاوز مرحلة مواجهة التحديات إلى مرحلة إثبات الذات، وحينئذ تصير الإنسانية في حاجة إلى علمه وعطاءاته، كما كانت من قبل في حاجة إلى عطاءات العبقريّة الإسلامية. إن خاصية الشهود هي مرحلة التفوق الحضاري، الذي ينجز ما يمنح الإنسانية حلولاً لمشكلاتها الاجتماعية والبيئية والسياسية والاقتصادية.

لا ريب أنها مسؤولة ثقيلة، ولكن من يتهيأ لها غير التعليم الإسلامي. ولو أن بعضها يتحقق فإن قيم الهوية الوطنية ترسخ أكثر لأن الناس جبلوا على حب من يسعى لرفع الغبن عنهم، ولأن الإنسانية تبحث عن مخرج لمشكلاتها التي لا تنتهي.

والقرآن الكريم يحدد مبدأ الاستخلاف في الأرض بمثل هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ۗ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ۝﴾ البقرة: ١٤٣

وربما هذا ما كان يطمح إليه الإمام محمد البشير الإبراهيمي حين قال: "فكرت جمعية العلماء منذ سنوات في تكوين جامعة عربية إسلامية بمدينة الجزائر تبنى الدراسات العالية فيها على الروح الإسلامية الشرقية الصافية وعلى غايات العلوم الحديثة النافعة، فتكون تكميلا للجامعين [يقصد جامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بالمغرب] عوناً لها في إحياء الثقافة الإسلامية وحفزاً لها على الإصلاح"¹⁶.

13- ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرَكَ الْفَوِيُّ الْآمِينُ ﴿٦٦﴾﴾ القصص: ٢٦

14- ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ يوسف: ٥٥

15- من محاضرة ألقاها بدار الحديث التلمسانية / مايو 2008

16- آثار محمد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985. ج 4 ص 248.